الرَّبيعُ

خرجتُ أشهدُ الطَّبيعة ؛ كيف تُصبح كالمعشوق الجميل ، لا يقدِّم لعاشقه إلا أسبابَ حبِّه !

وكيف تكونُ كالحبيب ، يزيد في الجسم حاسَّة لمسِ المعاني الجميلة !

وكنتُ كالقلب المهجور الحزين ؛ وجد السَّماءَ والأرض ، ولم يجد فيهما سماءَه ، وأرضه !

ألا كم من آلافِ السِّنين ، وآلافِها قد مضت منذُ أُخرِجَ آدمُ من الجنة !

ومع ذلك فالتَّاريخُ يعيد نفسه في القلب ، لا يَحزنُ هذا القلبُ إلا شعَر كأنَّه طُردَ من الجنَّة لساعته !

* * *

يقف الشَّاعرُ بإزاء جمال الطَّبيعة ، فلا يملك إلا أن يتدفَّق ، ويهتزَّ ، ويطرَب ؛ لأنَّ السرَّ الَّذي انبثقَ هنا في الأرض ، يريد أن ينبثقَ هناك في النفس .

والشَّاعرُ نبيٌّ هذه الدِّيانة الرَّقيقة ؛ الَّتي من شريعتها إصلاحُ النَّاس بالجمال الخيِّر .

وكلُّ حُسنٍ يلتمس النَّظرةَ الحيَّةَ ؛ الَّتي تراه جميلاً ؛ لتعْطيَه معناه .

وبهذا تقف الطَّبيعة مُختلفةً أمام الشَّاعرِ ، كوقوف المرأة الحسناء أمامَ المصوِّر .

* * *

لاحت لي الأزهارُ كأنَّها ألفاظ حُبٍّ رقيقةٌ مُغشَّاةٌ باستعاراتٍ ، ومجازاتٍ ، والنَّسيم حولها كثوب الحسناء على الحسناء ، فيه تعبيرٌ مِنْ لابستِه .

وكلُّ زهرةٍ كابتسامةٍ ، تحتها أسرارٌ وأسرارٌ من معاني القلب المعقَّدة : أهي لغةُ الضَّوء الملوَّنِ من الشَّمس ذاتِ الألوان السَّبعة . أم لغة الضَّوء الملوَّنِ من الخدِّ ، والشَّفة ، والصَّدر ، والنَّحر ، والدِّيباج[1] ، والحُلِيِّ . . .؟

* * *

---

(١) « الديباج » : هو نسيجٌ من الحرير ملوَّن ألواناً .

وماذا يفهم العشَّاقُ من رموز الطَّبيعة في هذه الأزاهر الجميلة ؟

أتُشير لهم بالزَّهر إلى أنَّ عمرَ اللَّذة قصيرٌ كأنَّها تقول : على مقدار هذا !

أتُعْلِمهم : أنَّ الفرق بين جميلٍ ، وجميلٍ ، كالفرق بين اللَّون ، واللَّون ، وبين الرَّائحة ، والرَّائحة !

أتُناجيهم بأنَّ أيامَ الحبِّ صُوَرُ أيامٍ لا حقائق أيامٍ .

أم تقولُ الطَّبيعة : إنَّ كلَّ هذا لأنَّكِ أيَّتها الحشراتُ لا تنخدعين إلا بكلِّ هذا[١] !

* * *

في الرَّبيع تظهر ألوانُ الأرض على الأرض ، وتظهر ألوان النَّفس على النَّفس .

ويصنع الماءُ صُنْعَه في الطَّبيعة ، فتُخْرِج تهاويلَ[٢] النَّبات ، ويصنع الدَّم صنعَه ، فيُخرج تهاويلَ الأحلام .

ويكون الهواءُ كأنَّه من شِفاهٍ متحابَّةٍ يتنفَّس بعضها على بعضٍ .

ويعود كلُّ شيءٍ يلتمع ؛ لأنَّ الحياةَ كلَّها يَنبِضُ فيها عِرقُ النُّور .

ويرجع كلُّ حيٍّ يُغنِّي ؛ لأنَّ الحبَّ يُريد أن يرفع صوتَه .

* * *

وفي الرَّبيع لا يضيءُ النُّورُ في الأعين وحدها ، ولكن في القلوب أيضاً .

ولا ينفذ الهواء إلى الصُّدور فقط ، ولكن إلى عواطفها كذلك .

ويكون للشَّمس حرارتان إحداهما في الدَّم .

ويطغَى فَيَضان الجمال ، كأنَّما يراد من الرَّبيع تَجْرِبة منظرٍ من مناظر الجنَّة في الأرض .

والحيوانُ الأعجم[٣] نفسُه تكون له لفتاتٌ عقليَّةٌ فيها إدراك فلسفةِ السُّرور ، والمرَح .

---

(١) ثبت أن ألوان الأزهار وعطرها وما في ظاهرها وباطنها ، كلُّ ذلك لاجتذاب الحشرات إليها ؛ لكي تنقل اللقاح من زهرة إلى زهرة . (ع) .

(٢) « تهاويل » : زينة . مفردها : تهويل .

(٣) « الأعجم » : الأخرس .

وكانت الشَّمسُ في الشتاء كأنَّها صورةٌ معلَّقةٌ في السَّحاب .

وكان النَّهارُ كأنَّه يضيء بالقمر ، لا بالشَّمس .

وكان الهواء مع المطر كأنَّه مطرٌ غيرُ سائلٍ .

وكانت الحياة تضع في أشياء كثيرةٍ معنى عُبوس الجوِّ .

فلمَّا جاء الرَّبيع ؛ كان فرحُ جميع الأحياء بالشَّمس ، كفرح الأطفال رجعتْ أُمُّهم من السَّفر !

* * *

وينظر الشَّبابُ ، فتظهرُ له الأرض شابَّةً .

ويشعر : أنَّه موجودٌ في معاني الذَّات أكثرَ ممَّا هو موجودٌ في معاني العالَم .

وتمتلئ له الدُّنيا بالأزهار ، ومعاني الأزهار ، ووحْي الأزهار .

وتُخرج له أشعة الشَّمس ربيعاً ، وأشعةُ قلبِه ربيعاً آخر .

ولا تَنسى الحياةُ عجائزَها ، فربيعُهم ضوءُ الشمس !

* * *

ما أعجَب سرَّ الحياة ! كلُّ شجرةٍ في الرَّبيع جمالٌ هندسيٌّ مستقلٌّ .

ومهما قطعتَ منها ، وغيَّرتَ من شكلها ؛ أبرزتْها الحياةُ في جمالٍ هندسيٍّ جديدٍ كأنَّك أصلحتَها .

ولو لم يبق منها إلا جِذْرٌ حيٌّ ؛ أسرعَت الحياةُ ، فجعلت له شكلاً من غصونٍ ، وأوراق !

الحياة ، الحياة . إذا أنت لم تفسدها جاءتك دائماً هداياها .

وإذا آمنتَ ؛ لم تَعُدْ بمقدار نفسك ، ولكن بمقدار القوَّة الَّتي أنت بها مؤمنٌ .

* * *

﴿ فَانظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ [الروم : ٥٠] .

وانظر كيف يخلق في الطَّبيعة هذه المعانيَ ؛ الَّتي تُبهج كلَّ حيٍّ ، بالطَّريقة التي يفهمُها كلُّ حيٍّ .

وانظر كيف يجعلُ في الأرض معنى السُّرور ، وفي الجوِّ معنى السعادة .

وانظر إلى الحشرة الصَّغيرة كيف تؤمن بالحياة ؛ الَّتي تملؤها ، وتطمئنُّ .

انظر . . . انظر ! أليس كلُّ ذلك ردّاً على اليأس بكلمة : لا . . . ؟

* * *